مجلة العلوم القانونية و الاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

موقف الاستشراق من السنة النبوية وحيا وثبوتا ونقلا

Orientalism’s position on the Sunnah: Revelations, proofs and quotations

عدنان مهنديس *

كلية الآداب سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، (المغرب)

mhndysdnan@gmail.com

تاريخ ارسال المقال:2021/03/15	تاريخ القبول:2021/04/25	تاريخ النشر: 2021/06/01

* المؤلف المرسل

ارات naraa.com

الملخص:

لا شك أن موقف الاستشراق من السنة النبوية موقف غير أحادي النظرة، وإنما هو موقف متوزع على عدة جوانب ذات اتصال وثيق بالحديث النبوي ومتعلقاته التوثيقية أو متعلقاته المصدرية، فالاستشراق له نظرة خاصة في التفريق المصطلحي بين مفهوم الحديث ومفهوم السنة وذلك من أجل تحقيق مقصديتهم في الدراسة وترويج الأفكار، كما أن نظرتهم النقدية للوحي ونزوله يظل أمرا يستندون إليه بقوة في ضرب مصداقية ثبوت السنة، وذلك على غرار ما دندنوا حوله من نقاش حول ظاهرة تدوين الحديث النبوي وأبعادها المقصدية، ليسجل المقال تخبط هذه الفئة في تقرير مجموعة من النقاط داخل القضية الواحدة مما من شأنه أن يبعث على التشكيك في منهجهم وموضوعيتهم ونتائج دراستهم.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، موقف، السنة، مظاهر.

Abstract : There is no doubt that the orientalist position on the Sunnah* is not one sided, it is instead one that is distributed on different aspects of it that are deeply related to the Hadith* and its documentations and sources. This is because orientalism has its unique view on the terminological differences between the concept of Hadith and that of the Sunnah, this view is established to further their views and ideas. Their views on the revelations was and still is a subject that orientalists keep coming back to to question the credibility of the Sunnah. This is similar to the discussion about the phenomena of recording the Hadith and the purpose behind it, which shows the uncertainty of this group when it comes to establishing set points about the same issue, which in turn raises doubts about the methods, objectivity and the conclusions of their studies.

*Sunnah: The traditions and practices of the prophet Muhammad (pbuh) that constitute a model for muslims to follow.

*Hadith: The recorded words, deeds and silent approvals of prophet Muhammad blessings be upon him.

.**key words**: orientalism, position, Sunnah, aspects

مقدّمة:

وصف الموضوع وأهميته:

يعتبر الاستشراق من الموضوعات الفكرية الهامة التي استأثرت باهتمام العلماء والباحثين في مجال الفكر الإسلامي؛ إن على مستوى الدرس أو على مستوى النقاش أو على مستوى البحث والإنتاج، رغم أنه ليس من القضايا القديمة التي عرفت وجودها في ساحة التناظر والحجاج، إلا أن له جذورا ممتدة وتقاطعات فكرية وتاريخية

www.manaraa.com

مع مجموعة من العلوم والقضايا التي عرفت تأسيس مهدها منذ بزوغ فجر العلوم المنبثقة من الوحيين الكتاب والسنّة، حيث يمكن اعتباره لوحده مجالا مستقلا يشكل إطارا معرفيا ومنهجيا قائما بذاته، إذ تتفرع داخله موضوعات فكرية هامة متعدّدة المجالات، كما هو الشأن بالنسبة للحديث عن الاستشراق والتراث عامّة، أو الحديث عن الاستشراق والقرآن، أو الحديث عن الاستشراق والسنة النبوية، أو الحديث عن الاستشراق والتاريخ الإسلامي...، ولذلك دوّن فيه الكثير من الباحثين كما سيأتي ذكره.

كما أن البحث في موضوع الاستشراق لا يخلو في تجسيد أهميته من أمرين اثنين:

-فهو إما كشف لنقاب الشبهات التي تثار حول الإسلام وقضاياه وقواعده وخصائصه، من أجل توضيحها وبيان ما يعتورها من زيف وتدليس وتضليل، ولا شك أن في ذلك مزيدا من التوسع والتعمق في الاطلاع على معالم الدين وأسراره، مع حمل لواء الذود عن حياضه وحماية أسسه.

-وإما بسط وعرض دراسي ممنهج لقضية علمية تتطلب إيراد النصوص والحجج والآراء والقضايا ذات الصلة بها، لتنجلي وتنكشف بما يسهم في الثراء المعرفي لمجال الفكر الإسلامي وما يتجدد فيه من قضايا تتولد وتتناسل بمرور العصور والأزمنة.

أما عن موضوع المقال بالتدقيق؛ فهو يندرج في إطار نقاش نماذج من القضايا والشبهات التي أثيرت حول السنة النبوية الشريفة، وهي ذات الصلة القوية بعلوم تتخذ من السنة والحديث النبوي أرضية للبحث، كما هو الشأن في علم مختلف الحديث أو علم مصطلح الحديث وعلله...

إشكالية البحث:

تتجلى إشكالية البحث المتعلقة بالموضوع المحدد للدراسة في تدقيق النظر داخل الطبيعة العلائقية بين موضوع الاستشراق والسنة النبوية، وإلى أي حد يمكن ضبط واستيعاب هذه العلاقة إلى حدّ التقنين والتقعيد أو الربط التلاؤمي مع المكونات التركيبية للحديث النبوي وفق ما حدّده أهل الشأن في هذا الصدد؟ وهل يتيح هذا الأمر إمكانية الخروج بتصنيف دراسي ييسر تحديد طبيعة هذه العلاقة؟

ويمكن تفريع إشكالية البحث إلى مجموعة من الأسئلة المجزأة وفق ما يلي:

ما معالم نظرة الاستشراق والمستشرقين للسنة النبوية؟

ما الذي يطغى على تشكيك المستشرقين في السنة نقدهم للسند؟

ما الميزة التي تميز نقد المستشرقين لأسانيد السنة النبوية؟

ما المجالات التي عرفت حضور المستشرقين في نقدهم لمتون السنة النبوية؟

منهج الدراسة أو البحث:

لمقاربة الإشكالية سالفة الذكر اتخذت من المنهج الوصفي في البحث العلمي عمدة للدراسة، وذلك بعرض مجموعة من نماذج المواقف والنصوص المجسّدة للنظرة الاستشراقية اتجاه السنة النبوية، وصف طبيعة العلاقة بينهما، تصنيف الأجزاء والمكونات المحددة لهذه العلاقة، إعادة عرض المنتوج العلمي المحصّل في أفق حلّ الإشكالية المركزية لموضوع البحث.

www.manaraa.com

ومن حيث الخطوات التي تقع داخل الإجراء المنهجي في الوصف؛ فقد عمدت إلى سوق الأقوال المستهدفة في الدراسة ونسبتها إلى أصحابها إما عن طريق المرجع المباشر أو عن طريق المرجع الوسيط إن تعذر الأمر، مع تبني الأعراف الأكاديمية السائدة في هذا الإطار سواء من حيث ترتيب العناصر المكونة للخطة وبنية البحث عامة أو من حيث طريقة التهميش ووضع الإحالات.

الدراسات السابقة في الموضوع:

يوجد في هذا الموضوع دراسات علمية كثيرة تتنوع ما بين مقالات وكتب منشورة وأطاريح أكاديمية، فمن بين المقالات العلمية المتخصصة فيه والتي تصطبغ بالصبغة التطبيقية: **موقف المستشرقين من رواة الحديث من خلال دائرة المعارف الإسلامية**، للأستاذة خليصة مزوز من جامعة الأمير عبد القادر في الجزائر، والذي نشرته مجلة المعيار في العدد 43 بتاريخ يناير 2018، فقد ركز على إثارة أهم الشبهات المثارة عى أبرز الرواة مع مناقشة ذلك نقاشا عميا مشفوعا بالدليل والبرهان.

أما الكتب العلمية في هذا الإطار؛ فمن بينها: الكتاب الموسوم ب ((**الاستشراق وموقفه من السنة النبوية**))، للأستاذ فالح بن محمد الصغير، والذي عرض فيه صاحبه مجموعة من مواقف المستشرقين ضدّ السنة النبوية بدوتن ترتيب ولا تصنيف دقيق للقضايا المبسوطة.

خطة إنجاز البحث:

انطلاقا من حصيلة المادة العلمية المتوفرة؛ وبعد الاستهلال بمقدمة منهجية تتكون من أهم العناصر اللازمة فيها؛ ارتأيت تقسيم المقال إلى أربعة مطالب، استهل المطلب الأول بتسليط الضوء على أهم السمات التي تحدد النظرة العامة للمستشرقين اتجاه قضايا السنة النبوية، لينتقل بنا المطلب الثاني إلى وصف التحليل النقدي لظاهرة الوحي والنبوة من خلال رؤية المستشرقين وما يكتنفها من تصورات، أما المطلب الثالث فقد جعلته حول تعريف المستشرقين للحديث النبوي وتفريقهم له عن مفهوم السنة النبوية، فيما يعالج المطلب الرابع شبهة المستشرقين لظاهرة كتابة وتدوين الحديث النبوي، ليختتم نص المقال بخاتمة تضم أهم النتائج التي أسفر عنها البحث في هذا الموضوع.

المطلب الأول: أهم السمات المحددة لنظرة المستشرقين اتجاه السنة النبوية.

يعتبر الاستشراق منهجا فكريا يتزعمه الغرب أو غير المسلمين بصفة عامة، فلا يكاد الباحث يجد فيه أحدا من المسلمين إلا ما كان على سبيل الإعجاب أو الاستمداد في أصول الأفكار، يقول الأستاذ عبد المنعم حسنين: {والمستشرقون جماعة من علماء الغرب –من **مسيحيين ويهود وملحدين**– درسوا اللغات الشرقية من عربية وفارسية وعبرية وسريانية وغيرها، وتوفر كثير منهم على دراسة اللغة العربية والاطّلاع الواسع على علومها ومعارفها؛ لاتخاذ هذه الدراسة وسيلة للقاء كثير من المفتريات والأباطيل في محيط الإسلام للتهوين من شأن الدعوة الإسلامية والتقليل من أثرها في الحياة، وفي الارتفاع بالمستوى الإنساني، وبدورها في إنقاذ الإنسانية وتحريرها من العبودية، وإخراجها من الظلمات إلى النور}[1].

www.manaraa.com

فهو اتجاه يقوم على دراسة تراث المسلمين قرآنا وسنة وتاريخا وفكرا، وتقديم ذلك في صورة معينة موجهة وقاصدة، تستهدف الطعن في الدين أو التشكيك في ثوابته وتعاليمه أو توفير قاعدة بيانات ومعطيات تسهل الاطلاع على معالم الدين وأسسه بقصد أغراض معينة محمودة أو مذمومة، ولذلك؛ يرجع اشتقاق المفهوم إلى لفظ الشرق المستمد من تقسيم الغرب للعام إلى قسمين شرق وغرب، يقول الأستاذ محمد السيد الجليند: {ومن المفيد أن يعرف القارئ الكريم أن مصطلح الشرق يرجع في أصل وضعه إلى مفكري الغرب، فهم الذين قسموا العالم إلى شرق وغرب، وقسموا الشرق إلى شرق أدنى أوسط وأقصى، ويطلق لفظ الشرق عادة على المنطقة العربية وشعوب آسيا وأفريقيا، أما لفظ الشرق الأوسط فقط فيطلق عادة على المنطقة العربية فقط}[2]، وهذا تقسيم قاصد من طرف من تبناه ليتسنى لهم بذلك تمييز أنفسهم من نواح عدة وسهولة السيطرة في الجوانب الحيوية وإمكانية استهداف ما يمكن استهدافه.

استطاع هذا التيار أن يسهم في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامّة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصّة معبرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما[3].

وانقسم المستشرقون إلى صنفين: صنف يحمل كل أنواع الحقد وبثّ السموم والشبهات والشكوك ضد كل ما يمتّ بِصلة إلى الدين الإسلامي–وان ادعّى بعض منتمي هذا الصنف مقومات المنهجية العلمية والموضوعية فيما يقدمه من دراسات وأبحاث–، وصنف منصف يتحلى بالموضوعية والإنصاف فيما يتبناه من منهج ويقدمه من دراسات حول الإسلام، بل لا يتحرج أصحاب هذا الصنف من الصدع بالحق ولو كان خلاف معتقادتهم وما يعتنقونه من مذهب وديانة، وقد بلغ الأمر ببعضهم أن أعلن إسلامه بعدما تبين له أنه الحق، مع أن البعض اعترض على تصنيف أسماء من المستشرقين ضمن هذا الصنف المنصف، كما هو الشأن في الحديث عن المستشرق غوستاف لوبون، إذ يقول في شأنه الأستاذ عبد العزيز القاري المدني: {فهذا – غوستاف لوبون – الذي يقول عنه المغفلون إنه من المستشرقين المنصفين المتعمقين في دراستهم العربية والإسلامية يقول في كتابه (حضارة العرب) في معرض ثنائه على ما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم:"وقيل إن محمداً كان مصاباً بالصرع ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح القطع في هذا الرأي وكل ما في الأمر هو ما رواه معاصرو محمد وعائشة منهم من أنه كان إذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقان وجهي فغطيط فغشيان، وإذا عدوت هوس محمد ككل مفتون وجدته حصيفاً سليم الفكر}[4].

يلاحظ أنه كان للبيئة التي نشأ فيها أغلب المستشرقين –سواء في أوروبا أو في غيرها–أثر كبير وبالغ في الجنوح السهل واليسير نحو ظاهرة التكذيب وضحد ونفي أدلة المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي—السنة النبوية–، ولعل السمة البارزة لهذا التكذيب والنفي الصادرين من الموقف الاستشراقي اتجاه السنة النبوية هي أنهما خاليان مما يقوي مصداقيتهما من معطيات تاريخية أو قرائن معضّدة، لدرجة أن القارئ في أحيان كثيرة يكلف نفسه عناء البحث والتنقيب عما تمّ الاستناد عليه لتبني موقف التكذيب والنفي، فلا يجد لذلك سبيلا، وحينما نتحدث عن التأثر بالبيئة؛ فالقصد بذلك التأثر بما يروج من معارف حول الدين الإسلامي ونبيّه أو وصف رسوله بما يقارنوه به من مصلحين ورموز ولو ظهرت في ذلك فوارق وموانع يتعذر معها هذا القياس وهذه المقارنة، ولا

www.manaraa.com

شك أن من استطاع من هؤلاء المستشرقين الخروج عن هذا التأثر وتحقيق التحرر من هذه المؤثرات والرواسب البيئية هو من اتصف فعلا بالموضوعية والتجرد من الإسقاط المنهجي مما قاده إلى دخول الإسلام وإعلانه بشكل مباشر ولو بين أظهر معارضيه ومخاصميه في ذلك، يقول الأستاذ أكرم العمري: {لقد ظهرت دراسات تحليلية كثيرة في القرن العشرين عن الإسلام والمسلمين وعن القرآن الكريم، وعن السُنَّةِ النبوية، وعن السيرة النبوية، وعن الثقافة الإسلامية وعن الشريعة الإسلامية، وهذه المؤلفات قامت بعقد دراسات مقارنة، والمقارنات منذ القديم تستهدف شيئاً أساسياً وهو تصوير الرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه مصلح اجتماعي عكس ضرورات البيئة العربية في مكة. ويقول جب Gib: «إنه نجح لكونه أحد المكيين» بمعنى أنه عَبَّرَ عن الحاجيات المحلية، ومهما اختلفت العبارات ما بين قسوة كاملة تتسم بسوء الأدب عند ذكر الرسول، – عَلَيْهِ الصَلاَةُ وَالسَّلاَمُ – وهذا ما يقوله المستشرقون المتأخرون عن المتقدمين بأنهم أساءوا جدًا – وبين دراسات أكثر موضوعية وحيادًا. ومهما اختلفت الصورة تبقى هناك قضية أساسية وهي أَنَّ جميع المستشرقين – متسامحهم ومتعصبهم – يتأثرون بوسطهم الثقافي المعادي للإسلام إلاَّ من أسلم منهم، وهم قلّة كما تعلمون مثل "أتين دينيه"، صاحب "محمد رسول الله" و"أشعة من نور الإسلام" وهو فرنسي، ومثل " موريس بوكاي " الذي قارن بين القرآن والانجيل والتوراة}[5].

كما يلاحظ أيضا وجود شبهات وإسقاطات في طريقة نفي المستشرقين وتكذيبهم لثبوت نصوص السنة النبوية الصحيحة مع ما سلكوه في تعاملهم مع آيات القرآن الكريم من قبيل القول بعدم الانسجام والخلط، مما يؤكد خلو هذه الفئة من المنهجية العلمية الموضوعية في الدراسة والتي تراعي خصوصية الفن المدروس وأسسه النقدية، تقول الدكتورة سعاد الناصر: {وقد درس بعض المستشرقين القرآن الكريم، لكن أغلبهم ابتعد عن الإنصاف والموضوعية، واستخلصوا أن القرآن الكريم كتاب غير منسجم، ولا تتحقق فيه النصّية، إلا أن هناك من كان منصفا، واحتفظ بالنظرة العلمية كالمستشرق الفرنسي **'جاك بيرك'** في كتابه 'إعادة قراءة القرآن' الذي رأى أن القرآن يعرف ترتيبا خفيا}[6]، والسر في كون السنة النبوية عرفت نفس الموقف الاستشراقي الذي ميَّزَ تعامل هذه الفئة مع القرآن الكريم هي كونها المصدر التشريعي الثاني الموضح والمفسر لما أجمله وأبهمه القرآن الكريم، يقول الأستاذ أحمد أنور الجندي: {وحين يراجع الباحث كتابات المستشرقين يجد أَنَّ موقفهم من السُنَّة هو جزء من موقفهم من القرآن وسيرة الرسول تمامًا، فإنَّ السُنَّةَ هي جزء من حياة الرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وهي تفسير للقرآن، فلا بُدَّ أَنْ تنالها الشبهات وتصل إليها السموم وعوامل التزييف، يقول العالم الفرنسي المسلم إتيان دينيه: «إِنَّهُ مِنَ العَسِيرِ أَنْ يَتَجَرَّدَ المسْتَشْرِقُونَ مِنْ عَوَاطِفِهِمْ وَنَزَعَاتِهِمْ عِنْدَمَا يُؤَرِّخُونَ حَيَاةَ الرَّسُولِ أَوْ يَدْرُسُونَ سُنَّتَهُ»... وقد صرح إتيان دينيه في مقدمة كتابه "تاريخ حياة سيدنا محمد": «وَإِنَّهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَدْ بَلَغَ تَحْرِيفُ بَعْضِهِمْ لِسِيرَةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَبْلَغًا غَطَّى عَلَى الوَاقِعِ وَأَخْفَى الصُّوَرَةَ الحَقِيقِيَّةَ، وَذَلِكَ بِالرَّغْمِ مِمَّا يَزْعُمُهُ المسْتَشْرِقُونَ مِنْ اتِّبَاعِهِمْ لأَسَالِيبِ النَّقْدِ البَرِيئَةِ وَلِقَوَانِينَ البَحْثِ العِلْمِيِّ المحَايِدِ}[7].

وفي سياق الحديث عن الموضوعية التي يزعمها المستشرقون في نقاشهم ومعالجتهم لقضايا الإسلام عامة وقضايا السنة النبوية خاصّة؛ يكاد يُجمع أغلب الباحثين الذين سلطوا الضوء على هذا الأمر أنها موضوعية مزيفة أو هي موضوعية خاصّة بهم يقومون بإعمالها في الوقت الذي يحلو لهم إعمالها فيه، أو قد يعملونها مع إخفاء

www.manaraa.com

لبعض الحقائق التي لا تنسجم مع مخططاتهم ومقاصدهم، مع أنه لا ينكر متأمل منصف أن الموضوعية المتجلية في التجرد من الهوى والاعتراف بالحق ولو كان بخلاف ما عليه المرء نفسه هي مبدأ قد توفر عند قلة من هؤلاء المستشرقين، ولو أن هؤلاء المنصفين لم يحظوا عند الأقران بنفس الاهتمام الذي حظي به الآخرون[8]، وعليه؛ فالموضوعية عندهم مجرد ادعاء كاذب من أجل تلميع الصورة فقط، وبقاء مكانتهم محفوظة وكلمتهم مسموعة داخل الأوساط العلمية التي لا تمحص الأقوال والمزاعم.

المطلب الثاني: المستشرقون وثبوت النبوة.

إن فكرة الخلط والاختلاق نشأت كمسلك من مسالك النفي والدحض والتكذيب عند المستشرقين في مواجهة الأحاديث النبوية، وذلك انطلاقا من زعمهم استمداد هذه الأحاديث من تراث مستورد خارج الإسلام، وقد توزعت هذه الفكرة عند المستشرقين بين نسبة هذا الاستمداد إلى اليهودية والنصرانية وبين نسبة استمداده إلى حضارات وديانات مطلقة، حيث سهل عليهم هذا الربط ما تميّز به الرسول صلى الله عليه وسلم من قدرات تواصلية ودعوية مكنته من لقاء ودعوة واستقبال مختلف الأجناس والقبائل والوفود، بالإضافة إلى ما ميّز موقع استقراره –سواء بمكة أو بعد هجرته إلى المدينة– من أهمية جغرافية واستراتيجية، يقول الدكتور محمود حمدي زقزوق نقلا عن ريتشار دبل مؤلف كتاب (مقدمة القرآن): {إن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتمد في كتابته للقرآن على الكتاب المقدس، وبخاصة على العهد القديم في قسم القصص، فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية، ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمده من مصادر يهودية ونصرانية، وقد كانت فرصته في المدينة للتعرف على ما في العهد القديم أفضل من وضعه السابق في مكة حيث كان على اتصال بالجاليات اليهودية في المدينة، وعن طريقها حصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل}[9]، ولعل هذه الشبهة الاستشراقية تذكرنا بموضوع وسياق نزول قوله تعالى: **"وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ"**[10]، حيث إن اختلاف من ادعى هذه النسبة التعليمية في تحديد اسم الشخص يعتبر أكبر دليل على ضعف هذا الادعاء وأنه لا تقوم له قائمة فضلا على أن كل اسم من هذه الأسماء لا يخرج عن قاسم مشترك بينها، وهو الانتماء إلى العجمة التي يمتنع معها هذا التعليم، بل هي الدليل القاطع على بطلان هذا القول، يقول الإمام الشوكاني في هذا: {وَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي تَعْيِينِ هَذَا الْبَشَرِ الَّذِي زَعَمُوا عَلَيْهِ مَا زَعَمُوا، فَقِيلَ هُوَ غُلَامُ الْفَاكِهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَاسْمُهُ جَبْرٌ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ، وَكَانَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِذَا سَمِعُوا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الْأُولَى مَعَ كَوْنِهِ أُمِّيًّا، قَالُوا: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ جَبْرٌ. وَقِيلَ: اسْمُهُ يَعِيشُ، عَبْدٌ لِبَنِي الْحَضْرَمِيِّ، وَكَانَ يَقْرَأُ الْكُتُبَ الْأَعْجَمِيَّةَ. وَقِيلَ: غُلَامٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ. وَقِيلَ: هما غلامان اسم أحدهما يسار، واسم الآخر جبر، وكانا صيقلين يَعْمَلَانِ السُّيُوفَ، وَكَانَا يَقْرَآنِ كِتَابًا لَهُمْ، وَقِيلَ: كَانَا يَقْرَآنِ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَقِيلَ: عَنَوْا سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ، وَقِيلَ: عَنَوْا نَصْرَانِيًّا بِمَكَّةَ اسْمُهُ بَلْعَامُ، وَكَانَ يَقْرَأُ التَّوْرَاةَ، وَقِيلَ: عنَوْا رَجُلًا نَصْرَانِيًّا كَانَ اسْمُهُ أَبَا مَيْسَرَةَ يَتَكَلَّمُ بِالرُّومِيَّةِ، وَفِي رِوَايَةٍ اسْمُهُ عَدَّاسٌ، قَالَ النَّحَّاسُ: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ غَيْرُ مُتَنَاقِضَةٍ، لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ جَمِيعًا

www.manaraa.com

يُعَلِّمُونَهُ، وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بِاعْتِبَارِ قَوْلِ مَنْ قَالَ إِنَّهُ سَلْمَانُ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَهُوَ إِنَّمَا أَتَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ. ثُمَّ أَجَابَ سُبْحَانَهُ عَنْ قَوْلِهِمْ هَذَا فَقَالَ: لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ}[11].

ويمثل المستشرق **هربلو** أحد متزعمي القول الثاني القاضي بالاستمداد المطلق للأحاديث من مختلف الديانات والحضارات، إذ يقول في ذلك الأستاذ أكرم العمري: {كذلك يلاحظ في دراسة هربلو التكذيب للرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَاتِّهَامِهِ بِالزَّيْفِ والألقاب الأخرى الشائنة، والزعم بأن المحَمَّدِيَّةَ[12] مستقاة من "التلمود" واليهود الذين دخلوا في الإسلام، مِمَّا سيتطور فيما بعد إلى الاستقاء من عدة ديانات وحضارات كانت على صلة بجزيرة العرب}[13]، وهو الاتجاه التكذيبي نفسه الذي سلكه المستشرق **جولد تسيهر** في نسبة استقاء السنة النبوية من اليهودية والمسيحية وتأثرها بها لإيقاظ العاطفة الدينية عند بني قومه[14]، وكأن الباحث المتأمل الناقد يتساءل مع نفسه: لماذا أخفى هذا المتأثر أمر تأثره بها وهو الصادق الأمين المعروف بذلك في قومه؟ ولماذا انقلب هذا التأثر منه إلى نقد لاذع يدحض معه عقائد الآخر وممارساته التعبدية وما الأسباب الموضوعية لهذا التحول الجذري؟ ولماذا لم ينقل عبر التاريخ وبالرواية المضبوطة الحاسمة هذا الخلق أو هذا التأثر مع بيان مواطنه وتدقيق موطن استمداده؟ تلك أسئلة استنكارية كبرى تفند ما يدّعى في هذا الصدد.

ومن القضايا الأساس التي عالج بها المستشرقون نظرتهم للسنة النبوية من حيث ثبوتها **تحليلهم النقدي الخاص لظاهرة نزول الوحي** على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، حيث إن ذلك يعتبر تمهيدا ومدخلا ليبنى عليه موقفهم من مصداقيتها وصحتها، لكن الغريب والمدهش في هذا التحليل النقدي الاستشراقي هو أنه ليس بدعا من القول أو الادّعاء، بل سُبِق في ذلك المستشرقون بنفس الفحوى بما قصّه القرآن من أقوال المكذبين والمتهمين لأهلية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وعليه؛ فهو تحليل صوري مستورد تاريخيا، مما ينِمّ عن قصور في الرأي والتفكير وسعة الأفق في الاطلاع عند هؤلاء المستشرقين، لأنهم فيما تبنوه ليسوا إلا إمّعة مردّدين أقوال من سبقهم وعالة عليهم في الاقتباس والاستناد، ولعلني أستشهد في هذا الصدد بما تفضل به الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي: {فجُمهُورُهم ينكر أنْ يكون الرسول نبيًّا موحى إليه من عند الله – جَلَّ شَأْنُهُ – ويتخبَّطون في تفسير مظاهر الوحي التي كان يراها أصحاب النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أحياناً، وبخاصة عائشة أم المؤمنين – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –، فمن المسْتَشْرِقِينَ من يرجع ذلك إلى «**صَرْعٍ**» كان ينتاب النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حيناً بعد حين، ومنهم من يرجعه إلى **تخيُّلات** كانت تملأ ذهن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، ومنهم من يُفَسِّرُها **بمرض نفسي**، وهكذا، كأنَّ الله لم يرسل نبيًّا قبله حتى يصعب عليهم تفسير ظاهرة الوحي، ولما كانوا كلهم ما بين يهود ومسيحيِّين يعترفون بأنبياء التوراة، وهم كانوا أقل شأناً من محمد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في التاريخ والتأثير والمبادئ التي نادى بها، كان إنكارهم لنبوَّة النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – تَعَنُّتاً مبعثه التعصُّبُ الديني الذي يملأ نفوس أكثرهم كرُهبان وقسس ومُبَشِّرين}[15].

إن هذه الادعاءات الثلاثة التي يدعيها المستشرقون–**الصرع والتخيل والمرض النفسي**–هي جزء من ادعاء أكبر تولّى القرآن الكريم تفنيده ودحضه، وأقل ما يرد به على هؤلاء المستشرقين فيها أن يقال لهم إن هذه الادعاءات قديمة وسابقة الوجود، فلتأتوا بشبهة جديدة تبين تفرّد منهجكم وموضوعية بحثكم النقدي، ولا شك

www.manaraa.com

أن تعنتهم وتعصبهم الديني خير دليل على غياب موضوعيتهم في الدراسة العلمية، لأن الموضوعية تقتضي تسوية العمل بالمبدأ في الإيمان بجميع الأنبياء والرسل دون تفرقة أو انتقاء، وإلا فليكن هناك تكذيب بالجميع.

ومن الأدلة القرآنية في الرد على ما سبق من ادعاء المستشرقين قول الله تعالى في محكم كتابه في موضعين مستقلين من نفس السورة:

- **"ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ"**[16].
- **"وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ"**[17].

وفي سورة أخرى يقول جلّ وعلا في آيات متتابعة:

- **"وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى"**[18].

إن نفي الجنون الوارد في الآيات أعلاه هو في الآن نفسه نفي لما هو أخف وأقل منه حالة، لأن الجنون مانع دائم، بخلاف التخيل والصرع والمرض النفسي فهي من قبيل المانع العارض أو المانع المؤقت، فاحتمال زوالها أمر ممكن جدا وذلك بخلاف الجنون، ثم لماذا لم تكن هذه العوارض الثلاثة مثبتة تاريخيا لمن عاصر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ومروية عن مخالفيه ومعارضيه، وذلك حتى تقوى لتكون حجة من أجل مواجهة أقواله وأفعاله بالردّ والتكذيب.

المطلب الثالث: المستشرقون ومفهوم الحديث النبوي.

من القضايا العملية التي ركز عليها المستشرقون في موقفهم المضاد والمعادي للسنة النبوية تفرّدهم بتعريف خاص للحديث النبوي وتفريقه عن تعريف السنة النبوية، فتارة يقومون بإقحام شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ضمن الكيان العام للجماعة الإسلامية وذلك لأغراض معينة، وتارة يعتبرون السنة النبوية مستقلة ومعزل عن صاحبها، وذلك بغية تحقير وتهميش رمزها ونورها وطمس روحها ومصدر قوتها.

إن التحديد المفهومي من المستشرقين للسنة النبوية أو الحديث النبوي تحديد قاصد وهادف، يأخذ بعين الاعتبار عندهم ما يرجى تحقيقه والوصول إليه من أهداف إيديولوية، وهو بذلك يختلف عن التحديد المفهومي لأهل الشأن وهم المحدثون، إذ إن تحديدهم للمفهوم –سواء تعلق الأمر بالحديث أو تعلق الأمر بالسنة– في هذا الصدد تحديد تركيبي يأخذ بعين الاعتبار مركبات المفهوم ومكونات الحديث أو السنة، كما هو الشأن بالنسبة للسند والمتن، وقد يكون هذا التحديد منهم تحديدا مجاليا أو نوعيا، كما هو الشأن عند تطرقهم للسنة القولية والسنة الفعلية والسنة التقريرية.

أهم نماذج المستشرقين في هذا الصدد المستشرق **جوزيف شاخت** والذي يفسر السنة بالأمر المجتمع عليه أو التطبيقات المثالية للجماعة، حيث يؤدي التسليم بهذه الحقيقة إلى أنّ مصطلح السنة لا علاقة له بأقوال الرسول

www.manaraa.com

صلى الله عليه وسلم وأفعاله[19]، وهو التعريف نفسه عند **جولد تسيهر** والذي يرى أن السنة هي جوهر العادات وتفكير الأمة الإسلامية قديما وقد يصفها تجوّزا بالعادة المقدسة والأمر الأول الذي يقع في مقام القانون أو الديانة[20].

ويرى كذلك المستشرق **مارغوليوث** أن مفهوم السنة في المجتمع الإسلامي في العصر الأول كان الأمر العرفي أو الأمر المجتمع عليه[21]، وهنا تظهر المكانة المرموقة لفقهاء وأصوليي التراث الإسلامي الذين ميزوا بين مراتب التشريع ودرجات ورود الأحكام والأقوال، فميزوا وفرقوا في ذلك بين مرتبة السنة النبوية ومرتبة الصحابة ومرتبة التابعين لهم ومرتبة عمل أهل المدينة ومرتبة العرف ومرتبة المصلحة المرسلة، ليتم بذلك بيان حدود وصلاحيات كل مرتبة في مقتضياتها التشريعية، وذلك بما يحفظها ويحفظ غيرها.

إن ربط مفهوم السنة النبوية عند المستشرقين بالعادات اللحظية والممارسات التفاعلية الآنية ليس أمرا عبثا، بل هو تمهيد للقول بأن السنة ليست إلا تفاعلا لأشخاص معينين مع ظروف محلية وبيئية محدّدة، وهي التفاعلات التي استطاعت أن تفرز لنا واقعا مركبا، حيث إنه الواقع الذي قد لا يكون مطابقا ولا مماثلا إذا تغير هناك عنصرا الزمان والمكان، حتى لا يمكن أن يعتبر بذلك أنموذجا أو مثالا يحتذى أو يصح أن يسقط في محلّ آخر، أو أن تحظى بمكانتها التشريعية اللائقة والثابتة لها، وعليه؛ فإن هذا الإجراء المفهومي من المستشرقين يروم نزع القداسة والسلطة التشريعية للسنة النبوية، لينظر إليها بذلك على أنها مجرد كلام بشري عادي.

ولذلك؛ ينقل الأستاذ سعد المرصفي عن المستشرق جولد سيهر في تحليله لمفهوم السنة فيقول: {ثم يضيف قائلاً بأنَّ فكرة[22] السُنَّة يمكن إدراجها بين الظواهر التي سمَّاها «سْبَنْسِرْ» بـ: «العواطف القائمة مقام غيرها»، وهي النتائج العضوية التي جمعتها بيئة من البيئات خلال الأجيال والأحقاب، والتي تركَّزت وتجمَّعت في غريزة وراثية تتألف منها الصِفَةُ أو الصفات التي توارثها أفراد هذه البيئة}[23]، ولعل هذه النظرة الخاصة للسنة النبوية يمكن أن يصطلح عليها **المفهوم الاجتماعي التجريدي للسنة النبوية**؛ وهي نظرة تنبثق من منطق ظاهرة حدوث التفاعلات، حيث إنها ظاهرة لا يمكن إنكارها من الناحية الواقعية، لكن المشكل والخلل يكمن في طريقة تأويل وتنزيل مقتضياتها، حيث يتم عزلها عن مجموعة من الثوابت مما يفقدها مصداقيتها وقوتها، إذ لا يمكن القبول والتسليم في هذا الإطار إلا باستحضار مفهومي الرسالة والتأسي والاهتداء من خلال عدة نصوص شرعية تؤصل لهذه الاعتبارات، كما هو وارد في هذه الآيات الثلاث:

- قوله تعالى: "**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**"[24].
- ومن خلال قوله تعالى أيضا: "**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**"[25].
- وقوله عز وجل أيضا: "**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**"[26].

ويا ليت السموم النافثة للمستشرقين توقفت عند هذا الحدّ، إذ زادت حدّتهم في ذلك إلى أن وصل الأمر إلى استهداف الطعن المباشر في أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم، بل قد يكون طعنهم في شخصه الكريم

www.manaraa.com

باستخدام ألفاظ يشهد لاعتبار أصلها الشرع وقواعد الاستنباط وذلك من باب حق أريد بها باطل، حيث يسوقون تلك الألفاظ في سياق خاص لا تحتمل إلا النيل من شخص الرسول الكريم والحطّ من قدره العالي الشريف.

ولعل هذا ما جرى مع المستشرق **شاخت** في موقفه مع الأفعال النبوية من خلال تعامله مع صفتي البشرية والعصمة من الخطأ[27]، مخالفا في ذلك ما قررته دراسات المحدثين والأصوليين، حيث إن الأصوليين حينما يتحدثون عن عدم عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم من الخطأ يفرقون في ذلك بين مواطن الاجتهاد في الدين ومواطن الاجتهاد في الدنيا، بل يعتبرون أن الوحي يسدده باعتباره مبلغا عن الله تعالى، أما مواطن الدنيا وإن اجتهد فيها فهو المقرر –صلى الله عليه وسلم– ابتداء وانتهاء في جميع تفاصيلها أن أمرها موكول لتفاعل المباشرين لها، وفي هذا يقول الإمام أبو المعالي الجويني (478هـ) مفرقا بين الأعمال الوظيفية المتجلية في التبليغ وسائر الأعمال الدنيوية الأخرى: {فَاعْلَم أَن عصمَة النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَاجِبَة فِيمَا يَلِيق بِمَعْرِفَة الله تَعَالَى، فَلَا يجوز عَلَيْهِ مَا يضاد الْمعرفَة وفَاقا، وَكَذَلِكَ يجب عصمته فِي التَّبْلِيغ، فَلَا يجوز عَلَيْهِ تعمد الْخلاف فِيمَا يبلغهُ وفَاقا، وَأما مَا لَا يتَعَلَّق بالتبليغ، فقد اخْتلف أرباب الْأُصُول فِيهِ، فَذهب بَعضهم إِلَى قطع القَوْل بعصمته صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فِي الصَّغَائِر والكبائر، ثمَّ افترق هَؤُلَاءِ فرْقَتَيْن: فَذهب بَعضهم إِلَى منع النسْيَان على رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فِيمَا يتَعَلَّق بِمَا هُوَ مُتبع فِيهِ، وَذهب آخَرُونَ إِلَى تَجْوِيز الصَّغَائِر مَعَ وجود الْعِصْمَة عَن الْكَبَائِر، وَادعوا امْتنَاع ذَلِك عقلا مَعَ ثُبُوت النبوة، وَزَعَمُوا أَن النُّبُوَّة كَمَا تنَافِي ثُبُوتهَا تعمد الْخلاف فِي الْبَلَاغ عقلا، فَكَذَلِك تنَافِي مقارفة الْكَبَائِر}[28]، ولا شك أن هذا التفريق الموضوعي الدقيق من الأصوليين هو تفريق وسطي يحفظ للنبي صلى الله عليه وسلم مقام نبوته ورسالته ويقطع في الوقت ذاته السبل في وجه المستشرقين الذين يتصيدون الشبهات والفرص ومواطن الزلل من أجل الوقيعة في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم عاش حياته نبيا رسولا ملهما ميدا بالوحي، كما عاش حياة بشرية طبيعية أيضا فيها من حظ الدنيا ما كتب له فيها.

المطلب الرابع: المستشرقون وتدوين الحديث النبوي.

تعتبر قضية تدوين وكتابة السنة النبوية من المحطات البارزة التي تفصح بجلاء عن موقف المستشرقين من السنة النبوية، لأنهم عوّلوا عليها ومن خلالها من أجل التفريق بين السنة النبوية والحديث حتى يتسنى لهم بذلك إضعاف جانب الوثوق والعمل بهذا المصدر التشريعي، ويكفي في ذلك أن أستشهد بما قاله الأستاذ فالح الصغير، حيث يقول: {ثم يتطرق هذا المستشرق إلى تحديد مفهوم الحديث الذي يفصله عن مفهوم السنة بقوله إن الحديث: الشكل الذي وصلت به السنة إلينا، فهما ليسا بمعنى واحد، وإنما السنة دليل الحديث، فهو عبارة عن سلسلة من المحدِّثين الذين يوصلون إلينا هذه الأخبار والأعمال المشار إليها طبقة بعد طبقة، مما ثبت عند الصحابة أنه حاز موافقة الرسول صلى الله عليه وسلم في أمور الدين أو الدنيا، وما ثبت أيضًا حسب هذا المعنى من المثُل التي تحتذى كل يوم، وأما شاخت فيقول: إن الأحاديث ليست هي السنة بل هي تدوين السنة بالوثائق}[29]، فقوله ((الشكل الذي وصلت به)) بالإضافة إلى قوله ((السنة دليل الحديث)) هو تلميح منه إلى التشكيك في تغير هذه السنة وتحوّلها بعد خضوعها لعملية الكتابة والنقل فكأن هذه الوسيلة الخادمة أصبحت أداة

www.manaraa.com

لإضعاف وتوهين روح هذه المصدر، وهو أيضا طعن وتشكيك في مصداقية من تصدّوا للقيام بهذا العمل، ولذلك نجد في مواطن أخرى في نفس هذا الصدد طعن مباشر من هؤلاء المستشرقين في هذه الفئة التي بذلت جهدا في حفظ إرث النبوة وتركتها، ومما ورد في ذلك قول الأستاذ أحمد أنور الجندي: {وقد شك جولدتسيهر في صحة وجود صحف كثيرة في عهد الرسول، راميًا من وراء ذلك إلى إضعاف الثقة باستظهار السُنَّة وحفظها في الصدور، وهو يرمي أيضًا إلى وصم السُنَّة (أو أغلبها) بالاختلاق والوضع على أَلْسِنَةِ المدَوِّنِينَ، وهو يزعم أَنَّ هؤلاء المدَوِّنِينَ لم يجمعوا من الأحاديث إلاَّ ما يوافق هواهم، ويرى شبرنجر في كتابه "الحديث عند العرب" أَنَّ الشروع في التدوين وقع في القرن الهجري الثاني، وأَنَّ السُنَّةَ انتقلت بطريق المشافهة، أما دُوزي فهو ينكر نسبة هامة (التركة المجهولة) كما يُسَمِّيهَا من الأحاديث إلى الرسول، وقد رَدَّ كثير من الباحثين المسلمين داحضين هذه الأهواء الموغلة في الحقد والخصومة}[30]، وبالتالي؛ فالملاحظ أن ما يتذرع به المستشرقون في نقدهم للسنة النبوية ينم عن ضعفهم في تصور حقيقة ما يتم به حفظ وبقاء هذا المصدر من مزاوجة بين المشافهة والكتابة، لأن هذا المسلك هو المنهج عينه الذي نصّ عليه أهل الحديث وعلماء التخصص في هذا الشأن من أجل الاحتياط في حفظ هذا المصدر التشريعي، لكن غياب هذه الرؤية وإهمال الاطلاع على المنهج النقدي للمحدثين -باعتبار حيازتهم قدم السبق في سبر أغوار هذا العلم- هو الذي أوقعهم فيما وقعوا فيه، رغم أنهم يتذرعون في ذلك بما يظهر موضوعيتهم وبراءتهم مما نسب إليهم حتى يصنفون أنفسهم في دائرة المنهجية العلمية ولذلك فهم لا يجنحون إلى الإنكار والنفي من الدفعة الأولى، وفي هذا الشأن يقول الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي: {ويتذرَّعُ هؤلاء المسْتَشْرِقُونَ بما دخل على الحديث النبوي من وضع ودَسٍّ، متجاهلين تلك الجهود التي بذلها علماؤنا لتنقية الحديث الصحيح من غيره، مُستندين إلى قواعد بالغة الدقَّة في التثبت والتحرِّي، مِمَّا لم يعهد عندهم في ديانتهم عشر معشاره في التأكد من صِحَّة الكتب المقدَّسة عندهم، ... والذي حملهم على ركوب متن الشطط في دعواهم هذه ما رَأَوْهُ في الحديث النبوي الذي اعتمده علماؤنا من ثروة فكرية وتشريعية مُدهشة، وهُمْ لا يعتقدون بنبوَّة الرسول، فادَّعَوْا أنَّ هذا لا يعقل أنْ يصدر كله عن محمد الأُمِيِّ بل هو عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى، فالعقدة النفسية عندهم هي عدم تصديقهم بنبوَّة الرسول، ومنها ينبعث كل تخبُّطاتهم وأوهامهم}[31]، ويجرنا هذا الكلام إلى تأكيد أمر منهجي يشكل خللا كبيرا عند هؤلاء المستشرقين؛ وهو سبق الاعتقاد وتبني القول على وجود الدليل والمنطلق، فهم يعتقدون ثم يلجأون إلى البحث عن الدليل وما يدعمون به أفكارهم، فلا يسلمون حينئذ من ليّ أعناق النصوص وتحوير النقول والسياقات.

إن عدم وضوح المنهج وخلوه من القواعد الدقيقة الضابطة فيما سلكه المستشرقون في إطار تعاملهم مع السنة النبوية جعل نتيجتهم تؤول مباشرة إلى نفي وإقصاء، وليس إلى تمحيص وتنقية، لأنَّ المحصِّصَ والمنقي يبين مرجعيته وقواعد احتكامه التي استند عليها في إبقاء أو ردّ التركة الحديثية، لتظل بذلك العقدة النفسية التي ذكرها الدكتور السباعي هي الأمر الكاشف الفاضح لهذه الفئة، فلو أنهم كانوا صادقين في دراساتهم لنهلوا مما جاء في جهود من سبقهم من المحدثين من آليات وأدوات، فأضافوا لذلك أو استدركوا بناء على أسس علمية موضوعية على غرار ما انتقده الدارقطني (385هـ) على البخاري (256هـ) في صحيحه.

www.manaraa.com

ويستمر تخبط المستشرقين في تعاملهم مع السنة النبوية من خلال النص السابق، وذلك متجلّ في سوء توظيفهم لوصف الأمّي، فقد وصف القرآن الكريم الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف ليقرر أنه صفة كمال في حقه، وليس أبدا صفة نقص، وذلك حتى لا يتهمه المرجفون والمشككون باختلاقه من عنده، حيث قال تعالى: **"وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ"**[32]، لكن المستشرقين يروا من خلاله أنه مانع من وجود هذه التركة العظيمة الناتجة عن النبوة، ليعضد ذلك موقفهم من نزول الوحي، وهو ما عالجته سابقا من وصفهم لظاهرة الوحي بشتى الأوصاف التي تقضي بنفيها وتكذيبها.

وبرجوعنا إلى قضية كتابة وتدوين السنة النبوية الشريفة؛ نجد أن المستشرقين يعوّلون على آثار وأحاديث نبوية توهم التعارض إذا تم اجتزاؤها وتجريدها عن نظائرها في الباب[33]، فيستندون عليها في تبني القول بالمنع من كتابة هذه السنّة، ليقودهم الأمر في آخر المطاف إلى اتهام علماء الأمة وأئمتها ومحدثيها بالكذب والاختلاق، وذلك في انصراف تام وإعراض مطلق عن تحقيق القول وتمحيصه في القضية وجمع نصوصها، أو النظر إلى الثروة العلمية التي أنتجها هؤلاء العلماء ومناهج الوصول إليها لإدراك مدى موضوعيتهم من عدمها فيما ألفوه وأنتجوه ونفعوا به الأمة، وفي هذا يقول الأستاذ محمد السيد الجليند عن المستشرق شاخت: {وقال: إن الأحاديث الفقهية وغيرها ظهرت في القرن الثالث الهجري، وأن الفقه ومسائله لم يظهر في عصر محمد ولا في عصر الصحابة، وإنما ظهر بعد هذا الجيل، واستدل بذلك على كذب الأحاديث النبوية، ومع ما في هذه الدعوى من مغالطات وأكاذيب تاريخية، فإن هذا المستشرق لم يكلف نفسه عناء البحث؛ ليعرف أن أقوال الرسول وأفعاله كانت تقوم بين جيل الصحابة مقام كتب الفقه بين الأجيال المتأخرة فضلا عن أن أحاديث الفقه كغيرها من الأحاديث الأخرى رواها المحدثون بسندها المتصل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وللمحدثين في ذلك منهج في التوثيق أفاد منه إلى حدّ كبير علماء المناهج المعاصرون، ووصفوه بالدقة، والموضوعية، وقوة الضبط، وسلامة النقل، وسار على نفس المنهج في التشكيك في كتب السنة آخرون أمثال "منتوجمري واط" المستشرق الإنجليزي، و"مارجليوث" و"جولد تسهير" وغيرهم، والأدلة التي يذكرها الواحد منهم على صحة دعواه تجدها مكررة عند غيره كأنهم قد تواصوا بذلك فيما بينهم وتوارثوها جيلا بعد جيل}[34].

لقد غابت الحجة في تبني المستشرقين لمجموعة من الادعاءات المغرضة نحو السنة النبوية، وكان التعميم بدون مقتضى وإصدار الحكم القيمي جزافيا سمتين بارزتين في تعاملهم مع السنة النبوية، وفي هذا يقول الأستاذ أكرم العمري: {وقد درس شاخت في مؤلفه " أصول الشريعة المحمدية " كتابي " الموطأ " لمالك و" الأم " للشافعي ثم عَمَّمَ نتائج دراسته على كتب الحديث والفقه الأخرى، فقال بنظرية «القذف الخلفي» لتفسير تطور الأسانيد، وتتلخص آراؤه في زعمه اختلاق الجزء الأكبر من الأسانيد، واعتقاده أَنَّ أقدم الأحاديث لا يرقى إلي ما قبل سَنَةِ 150هـ، وَأَنَّ الأحاديث اختلقها الفقهاء وأصحاب الفرق، وأن الشافعي هو الذي استحدث مبدأ حُجِيَّةَ السُنَّةِ، وكان العمل قبله على السُنَّةِ المذهبية، وقد كان أثره كبيرًا على جيله من المستشرقين}[35]، فالتعميم الصادر من شاخت يلزمه في ذلك وجود مقتضيات من قبيل وجود تشابه وتماثل في مناهج التأليف وتقارب في عصور التأليف

www.manaraa.com

وأماكنه وأشخاصه وهو الأمر الذي كذلك، مع أن الاختلاق الذي ادعاه شاخت وغيره لم يثبتوه واقعيا بما هو ملموس ولا يخلف وراءه أسئلة إنكارية وإشكالات متناقضة، ولماذا لم يؤثر في سير هؤلاء المختلقين ما يشهد في ممارساتهم الحياتية على وجود الاختلاق والكذب في سلوكهم الاعتيادي، ويعنّ لي هنا في هذا المقام سؤال وجيه إلى هؤلاء المستشرقين: ما السند الموضوعي الذي يدعم وجه احتجاجكم بأحاديث موضوعة لتأييد بعض مواقفكم؟ وهل قامت هنالك أسس علمية لاعتماد وتصحيح هذه الأحاديث الموضوعة حتى ترقى حجة؟ وهذا صنيع جولدتسيهر الذي يقول فيه الدكتور مصطفى السباعي: {فجولدتسيهر أعرض عن كل ما دُوّن من تاريخ أبي حنيفة تدويناً علميّاً ثابتاً، واعتمد رواية مكذوبة لا يتمالك طالب العلم المبتدئ في الدراسة من الضحك لسماعها، ليدعم بذلك ما تخيله من أنَّ السنّة النبوية من صنع المسلمين في القرون الثلاثة الأولى}[36].

وعليه؛ فمثل هذه التناقضات تضرب بعمق في صميم الموضوعية وإعمال المنهجية العلمية، وذلك لأن الذي يأخذ على عاتقه مبدأ محدّدا أو مرجعية معينة؛ فإنه لا بد أن يحتكم إلى ما يمتثل إليه في ذلك حتى تبقى مصداقيته محفوظة وثابتة، وهو الأمر الذي ينخرم مع هؤلاء المستشرقين في هذه القضية وفي غيرها، ولذلك عاب القرآن الكريم على المنافقين سلوك التفريق والتمييز اللامعقولين في تحقيق مقتضيات الإيمان، من خلال قوله تعالى: **"ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"**[37].

خاتمة:

من أهم النتائج التي يمكن أن نخلص إليها في ختام هذا المقال ما يلي:

-قصور إدراك المستشرقين لقضايا السنة النبوية وخوضهم فيها مع غياب تام للاطلاع على ما سبق تدوينه فيها من طرف أهل الشأن وما وصلوا إليه، وذلك باعتبار أنها دراسات سابقة في المجال لا بد من الرجوع إليها والانطلاق منها في التأسيس والبناء.

-غياب الموضوعية العلمية في نقد المستشرقين لقضايا السنة النبوية، واصطباغ دراساتهم ومناهجهم بالنقد غير البناء للأفكار والقضايا، وهو ما يجعلهم مجرد أدعياء في ذلك.

-تعريفات المستشرقين داخل مجال تطرقهم للسنة النبوية هي تعريفات ممنهجة وقاصدة تخدم مصالحهم وأغراضهم، ولا تغطي بالضرورة المستلزمات الوظيفية اللازمة في بناء التعاريف بشكل منطقي.

-تخبط المستشرقين أنفسهم وتناقضهم وعدم ائتلافهم في القول داخل القضية الواحدة ضمن مجال السنة النبوية يعتبر دليلا واضحا على ضعف منطلقاتهم وأدلتهم المنهجية، مما يقود إلى وصف ما هم عليه بالاضطراب والتهافت والخلل...

-اعتماد المستشرقين في معالجتهم لقضايا السنة النبوية على مبدأ التعميم بدون مقتضى ولا دليل، وقيامهم بإسقاطات لا مسوغ لها، يجعل خلاصاتهم ونتائجهم تبقى دائما محطّ جدل ورد ونقاش.

www.manaraa.com

-خلو أقوال المستشرقين في جزئيات السنة النبوية من الدقة العلمية ومنهج السبر والتقسيم الكفيلين بالتوضيح.

المصادر والمراجع المعتمدة في إنجاز المقال:

-القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

-الاستشراق والتبشير: محمد السيد الجليند، دار قباء، المملكة العربية السعودية، بدون طبعة ولا تاريخ.

-الاستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوته: عبد المنعم محمد حسنين، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: السنة العاشرة، العدد الثاني، 1397هـ/ 1977م.

-الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: محمود زقزوق، دار المنار، القاهرة، مصر، ط2، 1409هـ/ 1989م.

-الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي (1384هـ)، دار الوراق، المكتب الإسلامي، بدون طبعة ولا تاريخ.

-الاستشراق وموقفه من السنة النبوية: فالح محمد الصغير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، بدون طبعة ولا تاريخ.

-بلاغة القص في القرآن الكريم وآفاق التلقي: دة سعاد الناصر، كتاب الأمة، العدد: 19، السنة: 35، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، ط1، 1436هـ/ 2015م.

-التلخيص في أصول الفقه: إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (478هـ)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، بدون طبعة ولا تاريخ.

-الحديث والمحدثون: محمد محمد أبو زهو، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 2 جمادى الثانية، 1378هـ.

-السنة النبوية في مواجهة شبهات الاستشراق (ضمن بحوث المتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية): أحمد أنور الجندي (1422هـ)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ط1، 1401هـ/ 1981م.

-العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة النبوية: خالد بن منصور الدريس، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

-فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني (1250هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط1، 1414هـ.

-المستشرقون في الميزان: عبد العزيز القاري المدني، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، السنة السابعة، العدد الأول، رجب 1394 هـ/ غشت 1974م.

-المستشرقون والسنة: سعد المرصفي، مكتبة المنار الإسلامي ومؤسسة الريان، بيروت، لبنان، بدون طبعة ولا تاريخ.

-موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية: أكرم بن ضياء العمري، كلية الدعوة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، بدون طبعة ولا تاريخ.

-مجلة آفاق للعلوم، المجلد: 1، العدد: 2، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، دجنبر 2016.

www.manaraa.com

-مجلة المعيار، العدد: 43، الجزائر، يناير 2018.

الهوامش:

[1]الإستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوته: عبد المنعم محمد حسنين، ص79، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: السنة العاشرة، العدد الثاني، 1397هـ/ 1977م.

[2]الاستشراق والتبشير: محمد السيد الجليند، ص10، دار قباء، المملكة العربية السعودية، بدون طبعة ولا تاريخ.

[3]مقال: موقف المستشرقين من رواة الحديث من خال دائرة المعارف الإسلامية/ خليصة مزوز، ص212، جامعة الأمير عبد القادر، مجلة المعيار، العدد: 43، الجزائر، يناير 2018.

[4]المستشرقون في الميزان: عبد العزيز القاري المدني، ص152، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، السنة السابعة، العدد الأول، رجب 1394 هـ/ غشت 1974م.

[5]موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية: أكرم بن ضياء العمري، ص59، كلية الدعوة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، بدون طبعة ولا تاريخ.

[6]بلاغة القص في القرآن الكريم وآفاق التلقي: دة سعاد الناصر، ص79، كتاب الأمة، العدد: 19، السنة: 35، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، ط1، 1436هـ/ 2015م.

[7]السنة النبوية في مواجهة شبهات الاستشراق (ضمن بحوث المتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية): أحمد أنور الجندي (1422هـ)، ص12، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ط1، 1401هـ/ 1981م.

[8]مقال: التراث في منظور الاستشراق/ ميم نسرين لطيفة (جامعة سيدي بلعباس)، ص284، مجلة آفاق للعلوم، المجلد: 1، العدد: 2، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، دجنبر 2016.

[9]الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: محمود زقزوق، ص102، دار المنار، القاهرة، مصر، ط2، 1409هـ/ 1989م.

[10]سورة النحل: الآية 103.

[11]فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني (1250هـ)، ج3/ ص232-233، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط1، 1414هـ.

[12]نسبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وهي نسبة تشير إشارة واضحة إلى زعمهم التشكيك في مصدرية الرسالة وأنها وحي، بل تمهيدهم إلى القول بأنها مختلقة من عنده.

[13]موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية: أكرم بن ضياء العمري، ص70.

[14]الاستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوته: عبد المنعم محمد حسنين، ص83.

[15]الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي (1384هـ)، ص26/25، دار الوراق، المكتب الإسلامي، بدون طبعة ولا تاريخ.

[16]سورة القلم: الآيات 3/2/1.

[17]سورة القلم: الآيتان 52/51.

[18]سورة النجم: الآيات 11/1.

[19]العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة النبوية: خالد بن منصور الدريس، ص15، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

[20]المستشرقون والسنة: سعد المرصفي، ص29، مكتبة المنار الإسلامي ومؤسسة الريان، بيروت، لبنان، بدون طبعة ولا تاريخ.

[21]المستشرقون والسنة: سعد المرصفي، ص31/30.

[22]وصف السنة بشكل مطلق بأنها فكر هو في حدّ ذاته تجريد ضمني لها عن تأييد الوحي، وبالتالي تمهيد لوضعها مباشرة في دائرة النقد والتمحيص والأخذ والرد على غرار كلام سائر البشر.

[23]المستشرقون والسنة: سعد المرصفي، ص29.

[24]سورة الأنبياء: الآية 107.

[25]سورة الأحزاب: الآية 21.

[26]سورة النور: الآية 53.

[27]المستشرقون والسنة: سعد المرصفي، ص55.

www.manaraa.com

[28] التلخيص في أصول الفقه: إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (478هـ)، ج2/ ص227، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ ولا طبعة.

[29] الاستشراق وموقفه من السنة النبوية: فالح محمد الصغير، ص23/22، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ ولا طبعة.

[30] السنة في مواجهة شبهات المستشرقين: أحمد أنور سيد الجندي (1422هـ)، ص13.

[31] الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي (1384هـ)، ص29/28.

[32] سورة العنكبوت: الآيتان 49/48.

[33] يقول الأستاذ محمد أبو زهو في توضيح هذه القضية ومسلك إزالة التعارض وجمع الأدلة فيها: {ومنعا للوقوع في خطر التغيير والتبديل، الذي وقع فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى من قبل، منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتابة السنن، وتدوين الأحاديث، حتى يتسع المجال أمام القرآن، ويأخذ مكانه من الحفظ والكتابة معا، وحتى يثبت في صدور الحفاظ، وتألفه أسماعهم، وبذلك يزول خطر الالتباس. لذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كتابة الحديث. روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **"لا تكتبوا عني شيئًا غير القرآن، ومن كتب عني شيئا غير القرآن فليمحه"**، فتراه قد منعهم من كتابة الحديث، ووكله إلى حفظهم، وأجاز لهم روايته ونقله عنه، مع تحذيره لهم من الكذب عليه، وقد كان الصحابة كما تقدم لك على جانب عظيم في الحفظ، فلم يكن هناك خوف على السنن من الضياع. وشيء آخر جعل النبي صلى الله عليه وسلم، ينهاهم عن كتابة الحديث، هي المحافظة على تلك الملكة، التي امتازوا بها في الحفظ، فلو أنهم كتبوا لاتكلوا على المكتوب، وأهملوا الحفظ، فتضيع ملكاتهم بمرور الزمن، أضف إلى هذا أن الكتابة لم تكن منتشرة فيهم، ولم يكونوا أتقنوها حتى تحل محل الحفظ، وما كان من الكتابة عند أفراد قلائل، فقد انحصر عملهم في كتابة القرآن، والرسائل، ولو أنهم كلفوا مع ذلك كتابة السنن لوقع الناس في حرج عظيم، والتبس عليهم أمر السنة والكتاب....

هذا وربما يقول قائل: أن النبي صلى الله عليه وسلم، كما نهى عن كتابة الحديث كذلك ورد عنه الإذن بالكتابة وإباحتها، فقد روى البخاري في كتاب العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"اكتبوا لأبي شاه"**، يعني الخطة التي سمعها منه صلى الله عليه وسلم، يوم فتح مكة وقد سأله أبو شاه أن يكتبها له، وروي عن أبي هريرة أنه قال: **ليس أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكثر حديثا مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب**، إلى غير ذلك من الآثار الدالة على إباحته صلى الله عليه وسلم كتابة الحديث عنه، وهي بظاهرها تتعارض مع حديث أبي سعيد في النهي عن ذلك.

والجواب عن هذا التعارض: أن النهي كان خاصا بوقت نزول القرآن خشية التباسه بغيره، والإذن بالكتاب كان في غير ذلك الوقت. أو أن النهي كان عن كتابة غير القرآن مع القرآن في صحيف واحدة، والإذن كان بكتاب ذلك متفرقا حتى يؤمن الالتباس. أو يقال: كان النهي عن الكتابة متقدما لخوف التباس القرآن بالحديث، أو لخوف الاتكال على الكتاب، وإهمال الحفظ، أو غير ذلك، وكان الإذن متأخرا ناسخا للنهي السابق، عند أمن اللبس، أو عدم الخوف من الاتكال على المكتوب} (الحديث والمحدثون: محمد محمد أبو زهو، دار الفكر العربي، ص122/ 124، القاهرة، مصر، 2 من جمادى الثانية 1378هـ}.

[34] الاستشراق والتبشير: محمد السيد الجليند، ص53.

[35] موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية: أكرم بن ضياء العمري، ص72.

[36] الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي (1384هـ)، ص58.

[37] سورة البقرة: الآية 85.

www.manaraa.com